طلابي .. ما زلت أتعلم منهم

سماهر فرعون

البدايات

واجهت مشكلة في بداية دخولي صف التمهيدي؛ فقد فاتتني موعد التسجيل، وبدأت السنة الدراسية منذ شهر، وقد اكتفت الروضة بعدد الأطفال لديها. وتكررت معي المشكلة، في كل مرة كنت أكون مستعدة، اشتريت الزي والحقيبة وكل ما يلزم، ولكني كنت أعود إلى البيت خائبة. عند تسجيلي للصف الأول، كنت خائفة من تكرار المشكلة نفسها، كنت أريد، وبشدة، الدخول إلى المدرسة، وبخاصة أن أختي الكبيرة وبنات عمّي كلهن في المدرسة. في الصف الأول، كنت سعيدة جداً، فقد أصبحت المدرسة ملعبي ولقائي بأختي وبنات عمي، وتعرفي على أصدقاء جدد، وعدم افتراقي عنهم. بقي الحال بالنسبة لي كذلك حتى

المعلمة سماهر فرعون خلال لقاء لمربيات الطفولة المبكرة.

وصولي إلى الصف الثاني، ووضعي في شعبة صف أخرى بعيداً عن توأم روحي وابنة عمّي، بكيت كثيراً عندما فرقونا، وذهبت في صباح اليوم التالي إلى صفها وجلست بجانبها، ولم أرغب في العودة إلى شعبتي، عندها بدأت كلمات التهديد من المعلمات وترهيبي بالمديرة، فكرهت المدرسة، ولم تعد كما رأيتها سابقاً ملعبي ولقائي بأصدقائي، وأصبحت مجرد قوانين وأنظمة.

بعد فترة، تأقلمت مع الأمر، وتعرفت على صديقات جديدات، وأحببت المدرسة، فكنت طفلة نجيبة، أحببت المعلمات والمواد التي يدرسنها، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي **صفعتني** فيه معلمة العربي على وجهي لأنني لم أعرف كيف أكتب حرف (الهاء) موصولاً بوسط الكلمة. كم شعرت وقتها بالخجل والضعف الشديد، كرهت المعلمة وأردت تحديها، وأتذكر يومها بقيت أتدرب في البيت مطولاً على كتابة الحرف وتحديت نفسي جاهدة أن لا أرتكب أي خطأ معها وأتفوق في المادة.

مدرسة جديدة

انتقلنا بعدها إلى مدرسة جديدة، وأكثر ما أتذكره في أولى مراحلي التعليمية في هذه المدرسة هي معلمة الفن (رحمها الله) كانت إنسانة رائعة ومبدعة وحنونة جداً، أحببت الفن والدبكة والأناشيد بسببها، فهي كانت المسؤولة عن هذه الأنشطة. لم تفرض علينا القوانين والأنظمة، كنا نشعر معها بالحرية، كانت تسمعنا وتهتم بإبداعاتنا ومواهبنا. أذكر أنها كانت تسمح لنا أن نأكل ونحن نعمل، وكانت تغير ترتيب الصف باستمرار، وتسمح لنا بالجلوس أينما نريد، وتشجع ما نصنعه من تطريز أو رسم، وتعرضه على باقي الصف. ترددت في بداية انضمامي إلى الدبكة، ولكنها شجعتني وأشعرتني بالثقة، كم أود لو أني الآن في حصة من حصصها، تعلمت منها كم يمكن للمعلم أن يكون ملهماً لتلاميذه. شعرت في تلك المرحلة أن المدرسة ليست حفظاً ودراسة فحسب، وإنما مكان لبناء

الشخصية والتعبير عنها، لذلك فكرت في الصف السادس كيف أريد لشخصيتي أن تكون، هل تكون قوية، أم صارمة، أم شديدة، أم حنونة، أم متفهمة؟ أصبحت أخاطب الكل حسب فهمه وشخصيته، وكنت واعية ومحفزة للآخرين بمحبتي لهم.

إضافة إلى معلمة الفن، تأثرت كذلك بمعلمة الرياضيات التي ما زلت أحبها وأتذكرها حتى اليوم، وبخاصة كلّما مرت عليَّ مسألة رياضية. كنت أشعر دائماً بحبها لي، وهي كانت محفزي لأبدع وأتحدى نفسي. أذكر مرة أن معلمة العلوم كانت من إحدى أقارب زميلة لي في الصف، وكنت أشعر أن المعلمة تنحاز إليها كثيراً، وبخاصة في العلامات، ففي إحدى المرات شعرت بالظلم وغياب العدل، فأخذت من زميلتي أوراق امتحاناتها لمادة العلوم وأعدت تصليحها بنفسي، ووضعت لها العلامات التي رأيت أنها فعلاً تستحقها، وأعدت الأوراق إلى حقيبتها، فطبعاً لاحظت تغير علاماتها، وبدأت تبكي واشتكت عني لمعلمة الرياضيات التي كانت وقتها مربية صفنا أيضاً، نادتني المعلمة بعد الحصة لخارج الصف بعدما عرفت ما فعلت، وطلبت مني الاعتذار لزميلتي عما فعلت، ولم تحرجني وتعاقبني أمام زميلاتي، وإنما تكلمت معي على انفراد وتفهمتني.

صداقات وتقرير مصير

المرحلة الإعدادية لم يكن فيها الكثير، كانت بداية مرحلة عمرية جديدة، والاهتمام بأشياء أخرى غير الدراسة والمعلمات والمواد. كانت هذه المرحلة مرحلة تكوين الصداقات. أما المرحلة الثانوية، فقد كانت مرحلة تقرير التوجه؛ علمي أم أدبي، واخترت في الصف الحادي عشر الفرع العلمي، لأنه كان لدي حب عيش التجربة واكتشاف واختبار نفسي وقدراتي، وهناك عرفت أنه ليس لي علاقة بالفيزياء، لم أفهمها، وكانت علاماتي فيها متدنية؛ فحولت إلى الفرع الأدبي. في تلك المرحلة، اكتشفت عقدتي من معلمات الدين ومادة الدين، كنت أدرس المادة جيداً وأفهمها، ولكن إجاباتي كانت دائماً خاطئة، لأنها يجب أن تكون نصاً حرفياً عن الكتاب، ولم تكن معلمة الدين تقبل أي إجابة مصاغة بفهم الطالب، وهنا لا أقصد الأحاديث النبوية والآيات القرآنية؛ وكأنه من غير المسموح للطالب أن يوسّع من مداركه للأمور الدينية، بل عليه التعاطي معها كما هي. بالنسبة لي، كانت مادة الدين فهماً وعقيدةً وقلباً وفكراً، وليس حفظاً فحسب. واستمرت عقدتي مع مادة الدين إلى التوجيهي، حتى كدت أرسب به، حصلت على تحصيل 53 من 100 بمادة الدين، ولكن مرّت بسلام ونجحت بالتوجيهي بمعدل 89 أدبي، وبدأ مشوار جديد نحو المستقبل

المعلمة سماهر فرعون خلال لقاء لمربيات الطفولة المبكرة.

تخصص حسب سوق العمل

بدأ مشوار الجامعة بفكرة ما هو التخصص المناسب، فاخترت دراسة الأدب الإنجليزي، ليس لأنني أحب هذا التخصص، فعلى مر سنيني الدراسية لم تكن اللغة الإنجليزية شغفي، ولم يكن حتى تحصيلي الدراسي فيها ممتازاً، لقد اخترتها إلى جانب تخصص فرعي في الإدارة فقط لمجال عملهما الواسع والوظائف الممكن الحصول عليها. كنت أحلم بالعمل في مؤسسات وشركات. لم يتحقق هذا الحلم، بل تحقق شيء آخر لم يكن من أحلامي يوماً، وهو أن أكون معلمة.

ضللت الطريق .. ولم أكن نفسي

عندما بدأت العمل في إحدى المدارس معلمة لأول مرة، ما زلت أذكر كلمات المديرة ونصائح المعلمات الأخريات لي «أهم شيء الانطباع الأول، لا تعطيهم عين، بيّني لهم من الأول أنك شديدة» وهكذا بدأت، دخلت إلى الصف بجدية، تعرفت على الطلاب، مررت كم جحرة هنا وهناك لترهيبهم، وهددتهم بالعقاب. حاولت، أيضاً، في بعض المرات أن أتقمص شخصيات معلماتي الشديدات اللاتي كنت أخافهن، كنت أفكر «هكذا فعلت معلمتي وكنا نخاف منها وما نسترجي نحكي أو نعمل شي، خليني أعمل مثلها». هكذا كنت أتعامل مع الطلاب، أما من ناحية تدريس المواد، فعلى الرغم من أنه كان لدي بعض الأفكار والأساليب الجديدة والممتعة، فإنني لم أعرف كيف أعرضها

وأستخدمها مع مراعاة النظام والهدوء والوقت في الصف، لذلك اتبعت أسلوب معلماتي، أيضاً، وهو التلقين والتكرار، وقلت لنفسي أنني تعلمت بالأسلوب نفسه، وها أنا هنا الآن قد أكملت تعليمي وتوظفت، فلماذا لا أتبع الأسلوب نفسه. سلَّمت بالمفهوم النمطي بأن الشاطر شاطر، والكسول كسول، وما بيطلع منو شيء. إلا أنني بيني وبين نفسي شعرت بتأنيب الضمير، وأنني عديمة الفائدة، وحين ينتابني هذا الشعور كنت أقول لنفسي أنه مجرد عمل مؤقت، ولن أبقى معلمة. وأحياناً أخرى كنت أشعر بالراحة حين أكون على طبيعتي في تفاعلي مع الطلاب؛ أتفهمهم، وأسمعهم، وأحقق معهم بعض النتائج، فكان لا بد من نهاية لهذا الصراع الداخلي.

تجربتي كمعلمة

أحب خوض التجارب، فلماذا لا أثري هذه التجربة واكتشف قدراتي فيها؟ أذكر مرة، ولم يكن قد مر وقت طويل على تدريسي، كنا في منتصف الفصل الأول، جاءت أم طالبة عندي في الصف الثالث إلى المدرسة، وأخبرتني أن ابنتها متحمسة هذه السنة لمادة الإنجليزي، وأن أسلوب تدريسي قوي، وأن ابنتها تحبني، كم شعرت بالدفء والإنجاز حينها، وقررت أن أكون على طبيعتي في تعاملي مع الطلاب، ومن هناك بدأت تجربتي الحقيقية كمعلمة.

أصبح جوهر العملية التعليمية لدي هو احترام الطالب، وإعطاؤه حقه، والاستماع له، وتفهم ظروف حياته. وإن لم تفعل المعلمة ذلك، ولم تتشارك مع الطلاب وتسمعهم، سينبني في ذهن الطالب حاجز يقف بينه وبين المعلمة، وأنها فقط تهتم بالمادة والمتفوقين بها، وتعرض المعلومات فقط، ولا تهتم بهم كأفراد، وماذا يناسبهم. سينظر الطالب إلى المادة ومعلمتها بجمود، فإما أنه يفهم وإما لا يفهم، لذلك دائماً أحرص على مشاركتهم وإظهار اهتمامي بهم، وبخاصة الضعفاء منهم. أتذكر مرة كان على طلاب الصف الرابع كتابة جمل عن أنفسهم وتسليمي الورقة، الكثير منهم سلَّمني ورقة غير مسطرة، لا تاريخ، ولا عنوان، جلبت لهم ورقة عمل كنت قد كتبتها لهم، وقلت لهم أنا احترمكم، انظروا، لقد حرصت على تسطير الورقة وكتابة تاريخ وعنوان لها، أعدت لهم الأوراق وطلبت منهم تسليمها في اليوم التالي، سلَّموها في اليوم التالي وقد حرصوا على نظافتها وتسطيرها وكتابة عنوان وتاريخ لها، وبعضهم زيَّنها بالرسوم والألوان. أذكر أيضاً أنه كان لدي طالب ضعيف باللغة الإنجليزية، فحرصت دائماً على إشراكه في العملية التعليمية، وسماعه وقبول أي إجابة منه، كانت قراءته ضعيفة، فكنت أحضره إلى جانبي ونقرأ معاً، وشجعته باستمرار وأخبرته بأنه يتحسن جداً، كان يحاول دائماً، وهذا ما أحببته فيه، بعد ذلك بدأ يحرص على حل واجباته، يرفع يده حتى لو كان مخطئاً، يتدرب على القراءة ليكون أفضل.

أدركت أهمية كلمات المحبة والتشجيع، وأنها تأتي بثمارها مع الطلاب، فهم يريدون أن يحافظوا على محبتهم وتميزهم لدى المعلمة. هناك تفاصيل كثيرة أحبها في التعليم: طلابي ومحبتهم لي، ومصادقتي لهم، وشعوري بالإنجاز، واكتشافي الكثير عن نفسي وشخصيتي، إنهم طلابي كانوا وما زالوا معلمين لي، أعلّمهم وأتعلم منهم.

مدرسة العودة الأساسية المختلطة/ العيزرية

المعلمة سماهر فرعون خلال مشاركتها في لقاء لمربيات الطفولة المبكرة- برنامج البحث والتطوير التربوي- مؤسسة عبد المحسن القطان، 2016.